

اختبار التقوى!



النمّ الذي بين أيدينا يشي بأنّ الكثير من دلائل أو استدلالات الناس على التقوى غير دقيقة، أو غير مُحصّمة بالامتحان، ويفضي بنا إلى أنّ اعتبار التقوى الذاتية معياراً للعدالة فيه شيء من التساهل أو تبسيط المفهوم، ما لم تُقيّم ميدانياً.. تأمل:

«إذا رأيتم الرجلَ قد حَسَّنَ سَمْتَهُ وهدَّيَهُ وتَماوتَ في مَنطِقِهِ، وتَخاضَعَ في حركاتِهِ فرُّو ويداَّ لا يَغُرُّزُكم! فما أَكثَرَ مَن يُعجِزُهُ تَناولُ الدُّنيا ورُكوبُ الحرامِ منها لِضَعْفِ نِيَّتِهِ ومَهانَتِهِ، وجُبنِ قَلْبِهِ، فَتَنصِبَ الدِّينَ فُخّاً لها، فهو لا يزالُ يختلُّ الناسَ بظاهِرِهِ فإن تمكَّنَ من حرامٍ اقتحمَهُ، وإذا وَجَدتُموه يُعِفُّ عن المالِ الحرامِ، فرُّو ويداَّ لا يَغُرُّزُكم! فإنَّ شهواتِ الخلقِ مُختلِفةٌ، فما أَكثَرَ مَن يَنبو (ينفرُّ) عن المالِ الحرامِ وإن كَثُرَ، ويحملُ نفسَهُ على شِواءِ قبيحةٍ، فيأتي منها مُجرِّماً (كناية عن الزُّنا)، فإذا وَجَدتُموه يُعِفُّ عن ذلكِ فرُّو ويداَّ لا يَغُرُّزُكم! حتى تنظروا ما عقدةَ عقله، فما أَكثَرَ مَن تركَ ذلكَ أجمعَ ثم لا يرجعُ إلى عقلٍ متينٍ، فيكون ما يُفسدُ بجهلِهِ أَكثَرَ ممَّا يُصلحُهُ بعقلِهِ، فإذا وَجَدتم عقلَهُ متيناً، فرُّو ويداَّ لا يَغُرُّزُكم! حتى تنظروا أَمعَ هواه يكونُ على عقلِهِ، أم

يكونُ معَ عقلِهِ على هواه؟ وكيفَ محبَّتُهُ للرياساتِ الباطلةِ وزُهدُهُ فيها؟ فإنَّ في الناسِ مَنْ خَسَرَ الدنيا والآخرةَ، يتركُ الدنيا للدنيا، ويرى أنَّ لذَّةَ الرياسةِ الباطلةِ أفضلُ من لذَّةِ الأموالِ والنِّعَمِ المُباحةِ المُحلَّلةِ، فيتركُ ذلكَ أجمعَ طلباً للرياسةِ، حتى إذا قيلَ له: اتَّقِ اللهَ، أخذتهُ العزَّةُ بالإثمِ، فحسبهُ جهنَّمُ وليئسَ المهاد، فهو يخبِطُ خبِطَ عشواء، يوقدُهُ أوَّلُ باطلٍ إلى أبعدِ غاياتِ الخسارةِ، ويمدُّهُ ربُّهُ بعدَ طلبه لما يقدرُ عليه في طغيانه، فهو يُحلِّمُ ما حَرَّمَ اللهُ، ويُحَرِّمُ ما أحلَّ اللهُ، لا يُبالي ما فاتَ من دينه إذا سَلِمَت له الرياسةُ التي قد شقي من أجلها، فأُولئك الذينَ غَضِبَ اللهُ عليهم ولَعَنَهُمُ وأعدَّ لهم عذاباً مُهيئاً.

ولكنَّ الرجلَ كلَّ الرجلِ، نِعَمَ الرجلُ، هو: الذي جعلَ هواهُ تديعاً لأمرِ اللهِ، وقُواهُ مَبذولةً في رِضَايِ اللهِ، يرى الذُّلَّ معَ الحقِّ أقربَ إلى عزِّ الأبدِ من العزِّ في الباطلِ، ويَعْلَمُ أنَّ قليلَ ما يَحْتَمِلُهُ من سَرَائِها يُؤدِّيه إلى دَوامِ النِّعَمِ في دارٍ لا تبيدُ ولا تنفدُ، وأنَّ كثيرَ ما يلحقُهُ من سَرَائِها إن اتَّبعَ هواهُ يُؤدِّيه إلى عذابٍ لا انقطاعَ له ولا يزولُ، فذلِكُمُ الرجلُ نِعَمَ الرجلِ! فيه فَتَمَسَّكُوا وبسُنَّتِهِ فاقْتَدُوا، وإلى ربِّكُم فَتَوَسَّسُوا! فإنَّه لا تُردُّ له دَعْوَةٌ ولا يَخِيبُ له طَلِبَةٌ.» .

وعليه، فإنَّ (حُسنَ السمَتِ) ليس دليلاً كافياً على التقوى، والأناقة في المظهر - كما يُقال - ليس دليلاً على حُسنِ الجوهر، و(إظهارُ الإصلاحِ) لا يُعدُّ دليلاً على العدالة والتقوى، فقد يكونُ خِداعاً ورياءً واتِّخاذاً للدِّينِ مصيدةً.. ولا الامتناع عن المال الحرام دليلٌ تقوى، فقد يرغمُ الإنسانُ نفسه على ذلك ويحملها على تحقيق أغراضه الشخصية.

حتى اختبارُ التقوى هذا الذي عرضناه للتو (مجتمعيٌّ) وليس (ذاتياً)، هو ذاتيٌّ لأنَّه كاشفٌ عن سريرة؛ لكنَّه (مجتمعيٌّ) من حيث أدوات الاختبار ومحكَّاته التي هي (المال) و(الجنس) و(الرئاسة) وكلُّ ذلك في الباطل طبعاً، وإلا فلا يعدُّ أخذها من حلِّها ذا بأس، ولا يعتبر ثلماً أو قدحاً في عدالة العادل وتقوى التقوي.

وجواب: هل التقوى عملٌ قلبيٌّ أم ممارسةٌ مجتمعيةٌ؟ هو: الاثنان معاً؛ عملٌ قلبيٌّ في الاحتراز الذاتي من السير عكس خطِّ الاستقامة، وعملٌ ميداني في المترتبات على المواقف المعيشية أو الحياتية أو العلاقاتية، بل والفكرية والعاطفية والنفسية أيضاً، هل هي يا تُرى في وفاق وتوافق مع ذلك الخطِّ الذي يُمنِّئُ له (الضمير)، أم هي في وادٍ وهو في وادٍ؟!!

بهذا اللحاظ، يصف الإمام محمد الباقر (عليه السلام) الأتقياء بقوله في ما روي عنه: «قوّالون بأمر الله» وهذا نصفٌ، «قوّالون على أمر الله» وهذا نصفُها الآخر، فلا القولُ بأمر الله ودُكْمه وشريعته بكافٍ، ولا القيام على أمر الله من غير ذخيرة روحية عالية بكافٍ.

ولو تأمَّـلنا في وصف الإمام عليّ (عليه السلام) لعلامات الأتقياء وخصائصهم التي يُعرفون بها: «صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وقلّة الفخر والبخل، وصلة الأرحام، ورحمة الضعفاء، وقلّة المواتاة للنساء، وبذل المعروف، وحُسن الخلق، وسرعة الحلم، واتّباع العلم في ما يُقرَّب من الله عزّ وجلّ»، لتبيّن لنا أنّ التقوى مجتمعية بامتياز، ولأجل أن نكون دقيقين في التعبير والاستنتاج، هي مصنعٌ إنتاجٍ ذاتي لصناعةٍ مجتمعية.

القرآن الكريم بدوره ربط التقوى وقَرَنها بكلّ عمل حياتي ذا منفعة مجتمعية، سواء في المسارعة في الخيرات، أو في البذل المالي في أبواب البرّ والإحسان، أو في عمل الصالحات عموماً، أو في بناء المؤسسات العلمية والخيرية، ووصل ما أمر الله تعالى أن يوصل، أو في الثبات على العقيدة وعدم الاهتزاز في الشدائد والمنعطفات، أو في إدخال (المعاد) والحساب في اليوم الآخر في كلّ حساب!